مكة فی رحلة الشعر و الشعراء

حسن محمد

ملخّص البحث:

هـذه الرحلـة مـع مكّة المكرمـة في الشـعر والشـعراء، تُعدُّ رحلـةً واسـعةً طويلةً، تطلّعـت فيهـا قلـوبُ الشـعراء، قديـماً وحديثـاً، إلى بقعة هيأ كـرم البقـاع و أجلّها، و هامـت فيهـا و حولهـا أرواحهم و عواطفهـم، فنطقـت قرائحهم الشـعرية حبًّا لها وإجـلالاً، و شـوقاً و حنينـاً، و فخـراً و مدحـاً و وصفـاً لهـا و لمعالمهـا، و قد تجسّـد منهـم هـذا عبر القـرون و الأجيـال؛ ممـن وفّق لحجّهـا و ممن ينتظـره و يأملـه، فلعلّ كثـيراً منهـم رحلت آمالهـم إليها بقلوبهـم قبل أجسـادهم ... و مقالتنا هـذه اكتفت بنـماذج مـن ذلك.

***

الكلمات المفتاحية:

مكّـة المكرمـة، الإمـام زيـن العابديـن عـلي بـن الحسـين عليهما السلام، أبـوطـالـب عليه السلام، بـلال بـن ربـاح الحبشـي رضـوان الله عليه، السـيد الشـريف الـرضي رحمه الله، مضاض

بـن عمـرو، عمرو بـن الحارث بـن مضاض، مشـهد الحجيـج، مزاحم العقيـلي، أبو العـلاء المعـري، شـهاب الدين السـهروردي، عـلي بن أفلـح، عبد الرحيـم بن أحمد بـن علي البرعـي اليـماني، أبوالقاسـم محمـود بـن عمر الخوارزمـي الزمخـشري، أبـو اليمـن ابـن عسـاكر الدمشـقي، أحمد شـوقي، محمـد إقبـال اللاهوري.

***

لقـد حظيت مكـة المكرمة، أمّ القرى بمنزلـة كبيرة جدًّا في القلـوب الصالحة والأرواح الطيبـة، وفي دراسـات المؤرخـين وبحـوث العلماء والفقهـاء، وألهمـت الكتّـاب والأدباء والشـعراء أسـمى المعاني الروحية التي غـدت تحفر في وجدانياتهم ومشـاعرهم ومواهبهم مـادةً رائعـةً وخصبـةً لخيالهـم وقرائحهـم، وتهزُّ أوتـار مشـاعرهم وأحاسيسـهم، فراحوا بألـوان مـن جمـال المفـردات ومعانيهـا، يتغنّـون بـكلّ هـذه المعـالم وقدسـيتها، عبر بعض المواضيـع والأغـراض الشـعرية، فأفاضـت أشـعارهم حبًّـا وإجـلالاً، ووصفـاً ومدحـاً وفخـراً، وشـوقاً وحنينـاً إليهـا... وهـو ما نجـده فيما كتبـوه ودوّنوه عن تسـابق الشـعراء في ذلـك، سـواء أكانـوا مـن أهل مكـة وما حولهـا، أم من بلـدان نائيـة عن مكـة، أو بعيدةً شـيئاً ما عنهـا أو قريبـة منها.

وصحيـح أنَّ منـزل الإنسـان ومكانـه وبيئتـه يمثـل كلٌّ منها وجـوده، ويحكـي انتماءه وهويتـه، أو يؤثـر في بنـاء عواطفـه ومشـاعره، لكـنَّ كثـيراً مـن الشـعراء تربطهـم بمكـة علاقـة أُخـرى غـير البيئـة، وهـي علاقـة العقيـدة و ربـاط الديـن، وهـي علاقة أوسـع، ولعلّهـا أكثـر تأثـيراً، وهـو مـا نجـده حـاضراً في قصائدهـم عـن مكـة كالشـاعر والمفكّر محمـد إقبـال اللاهـوري، فـكان لأشـعارهم لـون خـاص وثمـر طيـب وحكايـة أخرى، وليـس هـذا بغريـب، فـأُمُّ القـرى، والبيـت العتيـق، والكعبـة المباركـة، والمسـجد الحرام بمعالمـه مـن الحجرالأسـود والمقـام والحطيم وحجر إسـماعيل، وزمـزم والصفـا والمروة، وعـاء قدمتـه السـماء، وخصّتـه بمناقـب وخصائص قـلَّ أو انعـدم نظيرها في غـيره، حتى

نالـت مكـة المكرمة الـشرف والرفعة والسـموّ عـلى جميع بقـاع الأرض وآفاقهـا ومعالمها، وهكـذا وديانهـا وجبالهـا وأزقتهـا، وحتـى طيورهـا وحيوانهـا ونباتهـا، وكـذا دورهـا وبيوتهـا ونواديهـا وأسـواقها الأدبيـة والشـعرية، كان لهـا جميعـاً نصيب وافر مـن خطبهم وأشـعارهم، الممزوجـة بذكرياتهـم ونظراتهم عـن هذه البقعـة الربانيّة المختـارة، وركيزتها الكعبـة المباركة ...

فمكة المكرمة، خصّها الله تعالى بـ:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.[1]

ولعـلّ ﴿أَوَّلَ﴾ تـدلّ عـلى الأولوية المطلقة؛ فهو الأول تأسيسـاً، وهـو الأول قرباً إلى الله سـبحانه وتعالى، وهـو الأول بركةً وهـدًى وحرمةً، وهـو الأول أمناً، وهـو الأول فضائل ومناقـب، وهـو الأول في قبـول عبـادة الله ونيل رضاه، وهـو الأول فيما يترتـب من الأجر والثـواب، والعفـو والمغفرة، وهو الأول في مضاعفة الحسـنات وإلغاء السـيئات لمن قصده وزاره وأعلن اسـتقامته وتوبته بصـدق وإخلاص ...!

فاكتسـبت أفضليتهـا عـلى باقـي البقاع مـن كونها موضـع اختيـار السـماء؛ لاحتضان **﴿أَوَّلَ بَيْـتٍ وُضِـعَ لِلنَّاسِ...﴾**، وأحسـنَ **﴿قِبْلَةً﴾** لإرضاء حبيبها رسـول الله ﷺ وتكريمه حينـما رأتـه يقلّـب وجهـه المبـارك في أطـراف السـماء هنـا وهنـاك، لعلّـه كان منـه انتظاراً وترقبـاً لوعـد السـماء، أو رجاءً لاسـتجابتها، ورغبـةً في تحقيق مـا يتمنّاه ...، كـما في الآية:

﴿قَـدْ نَـرَىٰ تَقَلُّـبَ وَجْهِكَ فِي السَّـمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَـةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَـطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.[2]

وحينهـا راح يتوجه إليها المسـلمون كافةً في فرض ومسـتحب ودعـاء ... وبهذا وغيره

١. سورة آل عمران: ٩٦ .

٢. سورة البقرة: ١٤٤ .

الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال، وبكعبتها المباركة، وبمعالم مسجدها الحرام وآياته، وطهارته وأشرفيته على البقاع، وبمواقعها الروحية والجغرافية الأخرى، جذبت مكة المكرمة إليها أفئدةً من الناس، جاؤوها من كلِّ فجٍّ؛ إما على أرجلهم، وإما ركباناً، والحنين إليها يرافقهم، والشوق يحدوهم، وأمل العودة إليها لا يفارقهم ...

استجابةً لدعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.[1]

وتلبيةً لأذانه المبارك:

وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ * لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ.[2]

وامتثالاً لأمره تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.[3]

فتمسكاً بذلك وبغيره من خصائص هذه البقعة الطيبة، وما حدث فيها ووقع عليها، ووفاءً لها ولأهلها ولربوعها التي انبثقت منها رسالة التوحيد، فأشرق نور

١. سورة إبراهيم: ٣٦ .
٢. سورة الحج: ٢٧ـ٢٩.
٣. سورة آل عمران: ٩٧ .

الإسلام، وشرائع السماء، وانطلقت من حرّائها أولى آيات التنزيل العزيز، وتواصلت فوق بقاعها تترى على رسول الله محمدﷺ..

حتى غدت مكة أحبَّ البلاد إلى الله تعالى وأكرمَها، وأفضلَ البِقاع وأجلّها على وجه الأرض، ولقد سُمعَ النَّبيّﷺ وهو واقفٌ بالحَزوَرةِ في سوقِ مَكَّة يقول:

«والله إنَّكِ لخيرُ أرضِ الله، وأحبُّ أرضِ الله إليَّ، ولولا أنَّ أَهْلَكِ أخرَجوني منكِ ما خَرجتُ»!

وفي خبر آخر يقول عبد الله بن عدي بن حمراء:

رأيتُ رسولَ اللهﷺ واقِفًا على الحَزوَرةِ، والحَزْوَرةُ: مرتفِعٌ يُقابِلُ المسعَى مِن جِهَةِ المشرِقِ، كان سُوقًا مِن أسواقِ مكَّةَ.

فقال النَّبيُّﷺ مُخاطِبًا مكَّةَ: «والله، إنَّكِ لخَيرُ أرضِ الله»، أي: أفضلُها وأعظمُها.

«وأحبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أنِّي أُخرِجتُ مِنكِ»، أي: بأمرٍ مِن الله، وذلك بَعدَما زاد أذَى قُريشٍ له ولِمَن أسلَم معَه. «ما خرَجتُ»، أي: لبَقيتُ بمكَّةَ.

وكان النَّبيُّﷺ خرَج مُهاجِرًا مِن مكَّة إلى المدينةِ. وفي الحَديثِ: أفضليةُ مَكَّةَ المُكرَّمةِ على غيرِها مِن سائرِ البُلدانِ وفيه: مِن تَعظيمِ الأدبِ في مُفارَقةِ بيتِ الله عزَّوجلَّ.

هذا وإكراماً لهذا العبد الصالح، والمؤمن المعذّب، الصحابي الجليل، بلال بن رباح الحبشي، نبدأ به، فهم يذكرون أنَّه لـمّا هاجر من مكة إلى المدينة المنورة، ظلَّ يتغنّى ببيتين من الشعر يرددهما حنيناً إلى مكة وشوقاً إلى ديارها، وإلى مائها ونباتها، مكة التي عرفته بعد إسلامه على ترابها، رجلاً معذَّباً على رمالها، راحت تصهره والحجر الساخن عليه، وهكذا اشتدَّ تعذيبه على أيدي جلاوزة قريش وبعض زعمائها، فلم يذق في نواحيها إلّا البطش والإهانة والإذلال من قبل كبرائها. وقد علا سماءَ مكة أنينُه، وهو يردّد نشيده الخالد: **أحد أحد!** ومع هذا بقي مشتاقاً إليها، يحنُّ إلى رباعها ومائها ونباتها ...

هـذان البيتـان مـن الشـعر ظلَّ بـلال في بلاد الهجـرة؛ المدينـة المنـورة، ينشـدهما باكياً، وكلّـما ذهبت عنـه حمّـى المدينة:

أَلَا لَيْتَ شِـعْرِي هَـلْ أَبِيـتَنَّ لَيْـلَةً بمكـة عندي(حـولي) إِذْخِـرٌ وجَلِيلُ

وَهَـلْ أَرِدَن يَـوْمًـا مِـيَاهَ مَجَنّـَـةٍ وهَـلْ يَبْـدُوَنْ لـي شَـامَةٌ وطَفِيلُ

يقول الشـارح: فقـد أحبَّ الصحـابي الجليل بلال بن ربـاح مكة، وتمنَّـى أنْ يَبيتَ ليلةً واحـدةً في ضواحيهـا، ويُطفِـئَ أشـواقَه الحـارَّةَ مِن ميـاه مِجَنَّـةَ، وهي: ماءٌ عنـد عُكاظ على أميـال يسـيرة من مكـة بناحية مرّ الظهـران، وكان به سـوق في الجاهلية، وأن يُمتِّـعَ ناظرَيْه بمشـاهدة إِذْخِـرٍ وجليلٍ، وهمـا نبتان من الكلإ طيـب الرائحة يكونان بمكـة، وغيرها مِن النَّباتـاتِ الخلويَّةِ الّتي حولها، وأن يُشـاهدَ شـامةَ وطَفِيلًا، وهما جبـلان متجاوران جنوب غـرب مكة عـلى قرابة ٩٠كم منهـا، وغيرَهما مِـن جبالِ مكَّةَ الشَّـامخةِ.

أقـول: ويصـل خبره إلى رسـول اللهﷺ وما ينشـده حبًّا لمكـة وحنيناً إليهـا، فيرفعﷺ يديـه قائلاً:

«اللهم حبّب إلينا المدينة كحُبّنا مكّة أو أشدّ»!

يدعـوﷺ بهذا، وقـد ذاقﷺ هو وعـدد من أصحابـه المؤمنـين أذى زعمائها المشركين حـين راحـوا وجلاوزتهـم يعذِّبـون عـلى رمالها الملتهبـة بحرارة الشـمس المؤمنين برسـالة السـماء، وكان منهـم بـلال وعـمّار بن يـاسر وأبوه وأُمّه سـمية حتى استُشـهدا ونجـا عمّار رضـوان الله عليهـم ... ولم يذوقـوا إلّا مـرارة الأذى والتعذيب والتسـقيط والتجريح من أهلهـا قسـاة القلـوب التـي خلـت مـن الإنابـة والإذعان لآيـات الله تعـالى، حتـى أنَّهم لم يكتفـوا بذلـك وبتكذيبـه، والطعـن بصـدق نبوّتـهﷺ بـل خططـوا لقتلـه في تلـك الليلة غـدراً وهـو عـلى فراشـه، إلّا أنَّهـم فوجئوا بمن فدى نفسـه لرسـول اللهﷺ بعـليٍّ عليه السلام نائماً في فراشـه، فخابـت مؤامرتهـم، وباؤوا بالفشـل وغضب مـن الله تعـالى، ونجاﷺ بهجرته إلى المدينـة التـي نـوّرت بـهﷺ ونكتفي بما يقوله الشـاعر حسّـان بـن ثابت:

ثـوى بِمَكَّـةَ بِضـعَ عَـشرَةَ حِجَّـةً ... يُذَكِّـرُ لَـو يَلقـى خَليـلاً مُؤاتِيـا
وَيَعـرِضُ في أَهـلِ المَواسِـمِ نَفسَـهُ ... فَلَـم يَـرَ مَـن يُـؤوِي وَلَم يَـرَ داعِيـا
فَلَـمّا أَتانـا وَاِطمَأَنَّـت بِـهِ النَـوى ... فَأَصبَـحَ مَـسروراً بِطَيبَـةَ راضِيـا
وَأَصبَحَ لا يَخشـى عَداوَةَ ظـالِمٍ قَريبٍ ... وَ لا يَخشـى مِـنَ النـاسِ باغِيـا
بَذَلنـا لَـهُ الأَمـوالَ مِـن جُـلِّ مالِنـا ... وَأَنفُسَـنا عِنـدَ الوَغـى وَالتَآسِـيا
نُحـارِبُ مَن عادى مِنَ النـاسِ كُلَّهِم ... جَمعـاً وَإِن كانَ الحَبيـبُ المُصافِيـا
وَنَعلَـمُ أَنَّ اللهَ لا رَبَّ غَـيرُهُ ... وَأَنَّ كِتـابَ اللهِ أَصبَـحَ هادِيـا

وإلّا فإنّهـم ذكـروا أنَّ الشـاعر الجاهـلي القديم مضاض بـن عمرو أقدم من تشـوّق إلى مكـة المكرمـة وحـنَّ...، حـين راح ينـدب حظّه وحـظّ قومه الذيـن أخرجوا مـن مكة... أمـا عـن وقت إنشـاده قصيدتـه الطويلـة التي تحكي شـوقه العظيم لمكـة، لّما وصـل إليها، متعقبـاً إبـلاً له، فوقف عـلى جبل أبي قبيس وأنشـدها... أما ابن إسـحاق فيقول:.. فخرج عمـرو بـن الحـارث بـن مضـاض الجرهمـيّ بغـزالي الكعبـة و بحجـر الركـن، فدفنهما في زمـزم، و انطلـق هـو ومن معـه من جرهـم إلى اليمن، فحزنوا عـلى ما فارقوا مـن أمر مكة وملكهـا حزنـاً شـديداً، فقـال عمرو بن الحـارث بن مضـاض في ذلـك، و ليس بمضاض الأكبر:

و قائلـة و الدمـع سـكب مبـادر ... وقـد شرقـت بالدمـع منهـا المحاجر
كأن لم يكـن بـين الحجـون إلى الصّفا ... أنيـس ولم يسـمر بمكّـة سـامر
فقلـت لهـا والقلـب منـى كأنـما ... يلجلجـه بـين الجناحـين طائـر
بـلى نحـن كنّـا أهلهـا، فأزالنـا ... صروف الليـالى، و الجـدود العواثـر
و كنّـا ولاة البيـت مـن بعـد نابـت ... نطوف بـذاك البيـت، و الخـير ظاهر
و نحـن ولينـا البيـت من بعـد نابت ... بعـزّ، فـما يحظـى لدينـا المكاثـر

ملكنا فعزّزنا فأعظم بملكنا فليس لحيّ غيرنا ثمّ فاخر...

إلى أن يقول:

و صرنا أحاديث وكنّا بغبطة بذلك عضّتنا السّنون الغوابر

فسحّت دموع العين تبكي لبلدة بها حرم أمن، و فيها المشاعر

و تبكي لبيتٍ ليس يؤذى حمامه يظلّ به أمناً، و فيه العصافر

و فيه وحوش - لا ترام - أنيسة إذا خرجت منه، فليست تغادر...

قال ابن هشام: هذا ما صحّ له منها. وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أنَّ هذه الأبيات أوّل شعر قيل في العرب، وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن، و لم يسمّ لي قائلها.[1]

هذا وأنَّ هناك الكثير، وأخصُّ بالذكر أولئك الذين وهبتهم السماء ملكةَ الشعر وحُسنَ القريحة الشعرية، فقد تعلّقت نفوسهم ببقاع مكة وبمعالمها، وغدت تهفو أفئدتهم اشتياقاً إلى رؤية البيت وكعبته المباركة، حتى أنَّهم راحوا يهيمون حنيناً إليها، يشفيهم القرب منها، ويزيدهم شوقاً إليها، ولا يسليهم البعد عنها، لهذا تراهم وقد بذلوا الغالي والنفيس، وتكبدوا فراق الأحبة والأهل، وتجشّموا عناء السفر الشاق الطويل، حتى يصلوا إلى هذه الديار، فتصدح حناجرهم تكبيراً وتهليلاً واستغفاراً، وتذرف عيونهم دموعاً ملؤها الحنين والشوق والفرحة برؤية الكعبة المباركة ومعالم البيت الحرام حتى كأنَّ نفوسهم تردّد قول الشاعر:

---

١. فتح الباري، شرح صحيح البخاري:٥٣٣٠؛ وصحيح البخاري: ١٨٨٩؛ صحيح ابن حبان:٥٦٠٠؛ وموقع الموسوعة الحديثية - الدرر السنية - ، بتصرف؛ المستدرك على الصحيحين، رقم ٤٣١٤؛ ديوان حسّان بن ثابت؛ السيرة النبوية، لابن هشام١: ٧٥؛ البداية والنهاية، لابن كثير٢: ٢٣٥؛ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، عبد الرحمن السهيلي٢: ١١-١٢؛ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الفاسي ١: ١٧٨.

أطـوف بـه والنفـس بعـد مشـوقة ... إليـه، وهـل بعـد الطـواف تـداني؟!
بقلبـي مـن شـوق ومـن هيـمان ... وألثـم منـه الركـن أطلـب بـرد مـا
فـو الله مـا أزداد إلّا صبابـة ... ولا القلـب إلّا كثـرة الخفقـان
ويـا منيتـي مـن دون كلّ أمـان ... فيـا جنـة المـأوى ويـا غايـة المنـى
أبـت غلبـات الشـوق إلّا تقربـاً ... إليـك فـما لي بالبعـاد يـدان
ومـا كان صـدي عنـك صـدّ ملالـة ... ولي شـاهد مـن مقلتـي ولسـاني
دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا ... فلبـى البـكا والصـبر عنـك عصـاني
وقـد زعمـوا أنَّ المحـبّ إذا نـأى ... سـيبلى هـواه بعـد طـول زمـان
ولـو كان هـذا الزعـم حقًّـا لـكان ذا ... دواء الهـوى في النـاس كلّ أوان
بـل إنَّـه يبـلى التصـبر والهـوى ... عـلى حالـه لم يبلـه الملـوان
وهـذا محـبٌّ قـاده الشـوق والهـوى ... بغـير زمـام قائـد وعنـان
أتـاك عـلى بعـد المـزار ولـو ونـت ... مطيتـه جـاءت بـه القدمـان

انظر هذا فيما ذكر في بدائع الفوائد لابن القيم:

فلقـد ذكـر هذه الأبيـات بعد أن بيّن محاسـن البيـت، وعظم شـأنه بما يدعـو الناس إلى قصـده وحجّـه، وإن لم يطلـب ذلـك منهـم، فقـال: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً** ...﴾.[1]

فوصفه بخمس صفات:

أحدها: أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض.

الثاني: أنـه مبـارك، والبركة كثـرة الخير ودوامـه، وليس في بيـوت العالم أبـرك منه ولا

١. سورة آل عمران: ٩٦ـ٩٧ .

أكثر خيراً ولا أدوم ولا أنفع للخلائق.

الثالث : أنَّه هدى، وصفه بالمصدر نفسه مبالغةً حتى كأنَّه هو نفس الهدى.

الرابع : ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية.

الخامس : الأمن لداخله.

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجّه، وإن شطّت بالزائرين الديار، وتناءت بهم الأقطار.

ثمَّ أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات. وهذا يدلك على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره والتعظيم لشأنه والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلّا إضافته إياه إلى نفسه بقوله:

﴿... **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ** ...﴾.[1]

لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً.

وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حبًّا وشوقاً إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطراً أبداً؛ كلّما ازدادوا له زيادةً، ازدادوا له حبًّا، وإليه اشتياقاً، فلا الوصال يشفيهم، ولا البعاد يسليهم كما قيل:

أطوف به والنفس بعد مشوقة إليه، وهل بعد الطواف تداني؟!..[2]

ولابن القيم أيضاً، وهو شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هجرية قصيدته الميمية (الرحلة إلى بلاد الأشواق) التي لعلّها توفّرت على أكثر من مئتين وعشرين بيتاً، نقتبس منها مقطعاً تحت عنوان: **مشهد الحجيج**.

---

١. سورة الحج: ٢٦ .

٢. انظر بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزية، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبوعبد الله، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد .

يتضمن سبعةً وأربعين بيتاً، مما يذكره فيها اشتياق الحجيج لبيت استمدّ عظمته وجلاله وجماله وقدسيته من انتسابه إلى الله تعالى حين أضافه إليه، فهو بيت مبارك ببركة السماء! يقول فيه:

أمَا وَالذِي حَجَّ الْمُحِبُّونَ بَيْتَهُ ... وَلبُّوا لهُ عندَ المَهَلِّ وَأحْرَمُوا
وقدْ كَشفُوا تِلكَ الرُّؤوسَ تواضُعًا ... لِعِزَّةِ مَن تعْنو الوُجوهُ وتُسلِمُ
يُهلُّونَ بالبيداءِ لبيك ربَّنا ... لكَ المُلكُ والحَمْدُ الذي أنتَ تَعْلمُ
دعاهُمْ فلبَّوْهُ رِضًا ومَحَبَّةً ... فلمّا دَعَوهُ كان أقربَ منهمُ
ترَاهُمْ على الأنضاءِ شُعْثًا رؤوسُهُمْ ... وغُبْرًا وهُمْ فيها أسَرُّ وأنْعَمُ
وَقدْ فارَقوا الأوطانَ والأهلَ رغبةً ... ولم يُثنِهِمْ لذَّاتُهُمْ والتَّنَعُّمُ
يَسِيرونَ مِن أقطارِها وفِجاجِها ... رِجالاً ورُكْباناً ولله أسْلمُوا
ولَّما رأتْ أبصارُهُم بيتَهُ الذي ... قلوبُ الوَرَى شوقًا إليهِ تَضَرَّمُ
كأنهمُ لمْ يَنْصَبُوا قطُّ قبْلَهُ ... لأنَّ شَقاهُمْ قد ترحَّلَ عنْهُمُ
فلِلَّهِ كمْ مِن عَبْرةٍ مُهْراقةٍ ... وأخرى على آثارِها لا تَقَدَّمُ
وَقدْ شَرِقتْ عينُ المُحِبِّ بدَمْعِها ... فينظرُ مِن بينِ الدُّموعِ ويُسْجِمُ
إذا عَايَنَتْهُ العَيْنُ زالَ ظلامُها ... و زالَ عن القلبِ الكئيبِ التألُّمُ
ولايَعْرِفُ الطرْفُ المُعايِنُ حسْنَهُ ... إلى أن يعودَ الطرْفُ والشوقُ أعْظمُ
ولا عجبٌ مِن ذا فحِينَ أضافهُ ... إلى نفسِهِ الرحمنُ؛ فهو المعظَّمُ
كسَاهُ منَ الإجْلالِ أعظمَ حُلةٍ ... عليها طِرازٌ بالمَلاحَةِ معْلَمُ
فمِنْ أجلِ ذا كلُّ القلوبِ تُحِبُّهُ ... وتَخْضَعُ إجْلالاً لهُ وتُعَظِّمُ
ورَاحُوا إلى التَّعْريفِ يَرْجُونَ رحمةً ... ومغفرةً مِمَّن يجودُ ويُكرِمُ
فلِلَّهِ ذاكَ الموقفُ الأعظمُ الذي ... كموقفِ يومِ العَرْضِ بلْ ذاكَ أعظمُ

ويــدْنُو بــهِ الجبّــارُ جَــلَّ جلالُــهُ ... يُباهِي بهِمْ أمْلاكَه فهو أكرَمُ

يقولُ عِبادِي قدْ أتوني مَحَبَّةً ... وَإنِّي بهِمْ بَرٌّ أجُودُ وأرْحَمُ

فأشْهِدُكُمْ أنِّي غَفَرْتُ ذنُوبَهُمْ ... وأعْطيْتُهُمْ ما أمَّلوهُ وأنْعِمُ

فبُشراكُمُ ياأهلَ ذا المَوقفِ الذِي ... به يَغفرُ اللهُ الذنوبَ ويَرحمُ

فكمْ مِن عتيقٍ فيه كَمَّلَ عِتقهُ ... وآخرَ يَسْتسعَى وربُّكَ أرْحَمُ

ومَا رُؤيَ الشيطانُ أغيظَ في الوَرَى ... وأحْقرَ منهُ عندها وهو ألأَمُ

وَ ذاكَ لأمْرٍ قد رَآه فغاظَهُ ... فأقبلَ يَحْثُو التُّرْبَ غَيْظاً وَيَلطِمُ

و ما عاينتْ عيناه مِن رحمةٍ أتتْ ... ومغفرةٍ مِن عندِ ذي العرْشِ تُقْسَمُ

بَنَى ما بَنى حتى إذا ظنَّ أنه ... تمكَّنَ مِن بُنيانِهِ فهو مُحْكَمُ

أتَى اللهُ بُنيَانًا له مِن أساسِهِ ... فخرَّ عليه ساقطاً يتهدَّمُ

وَكمْ قدْرُ ما يعلو البناءُ ويَنْتهي ... إذا كان يَبْنِيهِ وذو العرش يهدِمُ

وراحُوا إلى جَمْعٍ فباتُوا بمَشعَرِ الْـ ... ـحَرَامِ وصَلَّوْا الفجْرَ ثمَّ تقدَّموا

إلى الجَمْرةِ الكُبرَى يُريدون رَمْيَها ... لوقتِ صلاةِ العيدِ ثمَّ تيَمَّمُوا

منازلَهُمْ للنحْرِ يَبغونَ فضلَهُ ... وإحياءَ نُسْكٍ مِن أبيهِمْ يُعَظَّمُ

فلوْ كان يُرضِي اللهَ نَحْرُ نفوسِهِمْ ... لدانُوا بهِ طوْعًا وللأمرِ سلَّمُوا

كما بَذلُوا عندَ الجِهادِ نُحورَهُمْ ... لأعدائِهِ حتَّى جرَى منهمُ الدَّمُ

ولكنَّهمْ دانُوا بوضْعِ رؤوسِهمْ ... و ذلِكَ ذلٌّ للعبيدِ ومَيْسَمُ

ولَّما تقضَّوْا ذلكَ التَّفَثَ الذِي ... عليهمْ وأوْفَوا نذرَهُمْ ثمَّ تَمَّمُوا

دعاهُم إلى البيتِ العتيقِ زيارةً ... فيَا مرحَبًا بالزائِرين وأكرمُ

فلِلهِ ما أبْهَى زيارتَهُمْ لهُ ... وقدْ حُصِّلتْ تلكَ الجَوائزِ تُقْسَمُ

وَلله أفضـــالٌ هنـــاكَ ونِـعْـمَـــةٌ وبِـرٌّ وإحْسَـانٌ وجُـودٌ ومَرْحَـمُ
وعــادُوا إلى تلـكَ المنــازلِ مِـن مِنَى ونالُـوا مناهُـمْ عندَهـا وتَنَعَّمُـوا
أقامُــوا بها يـــومًا ويــومًا وثـالثًـا وأذِّنَ فِيهِـمْ بالرحيـلِ وأعْلِمُـوا
و راحُـوا إلى رمْـيِ الجـمارِ عَشِيَّـــةً شـعارُهُمُ التكْبـيرُ واللهُ معْهُـمُ
فلو أبْصـرَتْ عينـاكَ موقفَهـمْ بهـا وَقـدْ بسَـطوا تلـكَ الأكـفَّ لِيُرْحَمُـوا
ينـادونَـــهُ يـا ربِّ يـا ربِّ إنَّنـــا عبيـدُكَ لا ندْعـو سـواكَ وتَعْلـمُ
وها نحنُ نرجـو منـكَ ما أنتَ أهلُهُ فأنـتَ الـذي تُعْطِـي الجزيـلَ وتُنْعِـمُ
ولَمَّا تقضَّـــوْا مـن مِنًى كـلَّ حاجـةٍ وسـالتْ بهـمْ تلـكَ البِطـاحُ تقدَّمـوا
إلــى الكعبــةِ البيـتِ الحَـرامِ عشيـــةً و طافُـوا بهـا سـبْعًا وصَلَّوْا وسَـلَّمُوا

وقصيدة أخرى طالما راح يتغنّى بها المنشدون:

أنـخ ركابـك يـا مـن شـئت مغفرةً بـأبي قبيـسٍ واقصـد ذلـك الحـرم
و تابـع السير فـي ذلّ وفـي وجـل ونـاجِ ربّ البيـت في حجـر وملتـزم
وطـف ببيـت الله واســأله مكرمــةً يرقيـك منزلـة ذو الجـود والكـرم
وأسـع مـا بين الصفـا والمـروة مرتملاً و كــبرِ المــولى يـا ســاعِ في الحـرم
وزمزمُ لا تنس تضلـع منهـا مرتويًـا بنيـةٍ سـبقت تشـفي كلّ ذي سـقم!

هـذا ومـن الملاحظ أنَّ مكـة المباركة، وجدناها قـد احتلت مكانةً سـاميةً حين أخذت مـن الشـعراء صوراً وألوانـاً وأغراضاً شـعريةً مما تجود بـه قرائحهم، ففي الفخـر نجد عمَّ رسـول اللهﷺ أبـا طالب رضـوان الله تعالى عليه، يقـول قصيدته اللاميـة الطويلة مفتخراً ومتعـوّذاً فيهـا بالبيـت الحـرام وبمكانـه مـما يُحيكه بعض الخصـوم من قومـه كيـداً وتآمراً واعتـداءً... وهذا جـزءٌ منها:

ولـمّــا رأيــتُ القــوم لا ودَّ فيـهـم وقـد قطعـوا كلّ العـرى والوسـائل

وقد صارحونا بالعدواة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قوماً علينا أظنّةً ... يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل
قياماً معاً مستقبلين رتاجه ... لدى حيث يقضي حلفه كلّ نافل
وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيول من إساف ونائل
أعوذ بربّ الناس من كلّ طاعن ... علينا بسوء أو ملح بباطل
و من كاشح يسعى لنا بمعيبة ... ومن ملحق في الدين ما لم نحاول
وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه ... وراق ليرقى في حراء ونازل
وبالبيت حقّ البيت من بطن مكة ... و بالله إنَّ الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذا يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل
وأشواط بين المروتين إلى الصفا ... وما فيهما من صورة وتماثل
و من حجَّ بيت الله من كلّ راكب ... ومن كلّ ذي نذر ومن كلّ راجل

إلى أن يقول:

وكان لنا حوض السقاية فيهم ... ونحن الكدي من غالب والكواهل
شباب من المطيبين و هاشم ... كبيض السيوف بين أيدي الصياقل...

وهذا الأعشى بن ميمون بن قيس، وهو شاعر جاهلي، يفاخر بهذه المواقع أيضاً، ويهجو عمير بن عبد الله بن المنذر، أويعاتب رجلاً؛ مع أنه ذو شرف يقول له:

فما أنت من أهل الحجون ولا الصفا ... ولا لك حقّ الشرب من ماء زمزم

ولا جعل الرحمن بيتك في العلا بأجياد غربي الصفا والمحرم.[1]

وقد يقترن ذكرُ مكة ومدحُها هي ومعالمها بممدوح، والمدح واحد من الصور الشعرية، كما نطق الفرزدق مدحاً للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام، وكانت منا سبتها:

لما حجّ هشام بن عبد الملك في أيام أبيه، طاف بالبيت وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود؛ ليستلمه، فلم يقدر على ذلك بسبب كثرة الزحام، فنصب لنفسه كرسيًّا وجلس عليه، ينظر إلى الناس مع جماعة من أعيان الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام فطاف بالبيت. فلما انتهى إلى الحجر تنحّى له الناس حتى استلمه، فقال رجل من أهل الشام لهشام:

من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟

فقال هشام: لا أعرفه.

وكان الفرزدق حاضراً، فقال: أنا أعرفه، ثمّ اندفع، فأنشد هذه القصيدة:

هَذا الَّذي تَعرِفُ البَطحاءُ وَطأَتَهُ وَالبَيتُ يَعرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ

هَذا اِبنُ خَيرِ عِبادِ اللهَ كُلِّهِمُ هَذا التَقِيُّ النَقِيُّ الطاهِرُ العَلَمُ

هَذا ابنُ فاطِمَةٍ إِن كُنتَ جاهِلَهُ بِجَدِّهِ أَنبِياءُ اللهَ قَد خُتِموا

وَلَيسَ قَولُكَ مَن هَذا بِضائِرِهِ العُربُ تَعرِفُ مَن أَنكَرتَ وَالعَجَمُ

كِلتا يَدَيهِ غِياثٌ عَمَّ نَفعُهُما يُستَوكَفانِ وَلا يَعروهُما عَدَمُ

سَهلُ الخَليقَةِ لا تُخشى بَوادِرُهُ يَزينُهُ اِثنانِ حُسنُ الخَلقِ وَالشِيَمُ

---

١. السيرة النبوية، ابن هشام الحميري ١: ١٧٦؛ بحار الأنوار، العلّامة المجلسي ١٩: ٢؛ ثمار القلوب، للثعالبي ١: ١٣؛ ديوان الأعشى: ٢١٤؛ المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (ت٤٥٨ هجرية)، تحقيق عبدالحميد هنداوي ٣: ٨٥ عن ديوان الأعشى: ١٧٣؛ تاج العروس، الزبيدي ١٨: ١٣٢.

حَمّالُ أَثقالِ أَقوامٍ إِذا اِفتُدِحوا ... حُلوُ الشَمائِلِ تَحلو عِندَهُ نَعَمُ

ما قالَ لا قَطُّ إِلّا في تَشَهُّدِهِ ... لَولا التَشَهُّدُ كانَت لاءَهُ نَعَمُ

عَمَّ البَرِيَّةَ بِالإِحسانِ فَانقَشَعَت ... عَنها الغَياهِبُ وَالإِملاقُ وَالعَدَمُ

إِذا رَأَتهُ قُرَيشٌ قالَ قائِلُها ... إِلى مَكارِمِ هَذا يَنتَهي الكَرَمُ

يُغضي حَياءً وَيُغضى مِن مَهابَتِهِ ... فَما يُكَلَّمُ إِلّا حينَ يَبتَسِمُ

بِكَفِّهِ خَيزُرانٌ ريحُهُ عَبِقٌ ... مِن كَفِّ أَروَعَ في عِرنينِهِ شَمَمُ

يَكادُ يُمسِكُهُ عِرفانُ راحَتِهِ ... رُكنُ الحَطيمِ إِذا ما جاءَ يَستَلِمُ

اللهُ شَرَّفَهُ قِدماً وَ عَظَّمَهُ ... جَرى بِذاكَ لَهُ في لَوحِهِ القَلَمُ

التي أغضبت هشام بن عبد الملك (ت١٢٥هجرية)، فأمر بحبسه بين مكّة والمدينة.[١]

وجيزة نافعة:

مع السيد الشريف الرضي رحمه الله، المولود في بغداد (٣٥٩هـ)، والمتوفى فيها (٤٠٦هـ)، وحجازياته؛ وهي قصائد عاطفية نظّمها وهو في الحجاز. والمعروفة بأنّها «المقطعات الشعرية التي لها وجه اتصال بالحجاز مباشرةً أو بالتأدية إليه».

و يبدو أنَّ خير تعريف لها، كما ذهبوا إليه، هو ما ذكره الدكتور مصطفى كامل الشيبي:

«الحجازيات، مصطلح واضح الدلالة على مضمونه، يجري في الشهرة على نسق مع هاشميات الكميت وخمريات أبي نواس وزهديات أبي العتاهية، ويعني المقطعات الشعرية التي لها وجه اتصال بالحجاز، مباشرة أو بالتأدية إليه، من نظم الشريف

١. ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدّم له علي فاعور: ٥١١ .

الـرضي وهـي بالمفهـوم الحديث (آلبـوم) صـور تذكارية على هيئة أشـعار تجمـع ذكريات زياراتـه الكثـيرة لأرض الحجـاز أيـام إمارتـه الطويلـة للحـجّ ومـا قبلها حـين كان يرافق أبـاه، أبـا أحمـد الموسـوي، الأمير الـذي سـبقه وأورثه الإمـارة».

وقـد بلغـت أربعـين قصيـدةً، تتوفّـر عـلى حكاياتـه مـع الحجـاز، يذكـر أمكنـة فيـه ويصفهـا بقعـةً بقعةً، هضبـةً هضبةً، حجـارةً حجارةً، فـلا الخيف ينسـاه ولا العقيق، ولا المحصّـب والصفـا واللوى، ولا رامـة وكثبان ويلملـم... بل حتى أنَّه لم يـترك ذكر ظبائها ولا وصـف غزلانهـا في أشـعاره المذكـورة...، كان حريصـاً أن يمرَّ بأرض الحجـاز وبيئته مـروراً ليـس عابـراً كـما يفعل الآخـرون، بل مـروراً كأنـه يجعـل حجارتها تنطـق بوجده، وتثـير عنـده ذكرياتهـا، فـتراه يطـوف حولهـا بقلبـه، ويناجيهـا بعواطفـه، ويتغـزل بهـا في شـعره، ويخلدها اسـماً و وصفـاً في أبياتـه الرائعة.

إنهـا بيئـة الحجـاز، مـا أجلَّهـا مهبـط الوحـي والتنزيـل، ومهـوى أفئـدة المؤمنين، ومنـازل الدعـاة مـن الأنبيـاء والصالحـين والشـهداء، حبيبـة قلـوب المتقـين العارفين والحجّـاج والمعتمريـن...، كلُّ هـذه المفـردات الجميلـة والمعـاني الطيبة الجليلـة القدر؛ قـد احتلّـت مكانهـا في فكـر وعقيـدة ووجـدان السـيد الشريـف الـرضي، وبالتـالي تركـت آثارهـا فيه، فلـم تفارقـه في نظمـه لحجازيّاته التي صـارت مدار بحـث المؤرخ والأديـب والشـاعر...!

فتعالوا معنا لنعيش مع سيدنا الجليل في بعض أشعاره:

فالأخشـبان جبلان يُعدّان من المعالم الجغرافية والتاريخيـة والأثرية، يضافان ـ كما يقول ياقـوت الحمـوي ـ تـارةً إلى مكة وتـارةً إلى منى، وهما واحـد أحدهما: أبو قبيـس، والآخر قعقعـان... عـلى أنَّ غير ياقـوت من الجغرافيين، مـع قولهم إنَّ أحد الجبلين هـو أبو قبيس، اختلفوا في تعيـين الجبل الآخر.

كان لهـما مـع غيرهمـا كمنـى والمشـعر والخيـف والجـمار وزمـزم والمقـام... ذكـرٌ في

حجازياتـه، وهـو في هـذه الأبيـات يُبـين مـدى اشـتياقه إلى هـذه الأماكـن ومحبوبيتـه لها.

حيث يقول:

أُحِبُّـكِ مـا أَقـامَ مِنـىً وَجَمـعٌ	وَمـا أَرسـى بِمَكَّـةَ أَخشَـباها
وَمـا رَفَـعَ الحَجِيـجُ إِلى المُصَـلّى	يَجُـرّونَ المَطِـيَّ عَـلى وَجاهـا
وَمـا نَحَـروا بِخَيـفِ مِنـىً وَكَبّـوا	عَـلى الأَذقـانِ مُشـعَرَةً ذُراهـا
نَظَرَتُـكِ نَظـرَةً بِالخَيـفِ كانَـت	جَـلاءَ العَـينِ مِنّـي بَـل قَذاهـا
وَلَم يَـكُ غَـيرُ مَوقِفِنـا فَطـارَت	بِـكُلِّ قَبيلَـةٍ مِنّـا نَواهـا
فَواهـاً كَيـفَ تَجمَعُنـا اللَيـالي	وَآهـاً مِـن تَفَرُّقِنـا وَآهـا
فَأُقسِـمُ بِالوُقـوفِ عَـلى أَلالٍ	وَمَـن شَـهِدَ الجِـمارَ وَمَـن رَماهـا
وَأَركانِ العَتيـقِ وَبانِيَيهـا	وَزَمـزَمَ وَالمَقـامِ وَمَـن سَـقاها
لَأَنـتِ النَفـسُ خالِصَـةً فَـإِن لَم	تَكونيهـا فَأَنـتِ إِذاً مُناهـا
نَظَـرتُ بِبَطـنِ مَكَّـةَ أُمَّ خِشـفٍ	تَبَغَّـمُ وَهـيَ ناشِـدَةٌ طَلاهـا
وَأَعجَبَنـي مَلامِـحُ مِنـكِ فيهـا	فَقُلـتُ أَخـا القَرينَـةِ أَم تُراهـا
فَلَـولا أَنَّنـي رَجُـلٌ حَـرامٌ	ضَمَمـتُ قُرونَهـا وَلَثَمـتُ فاهـا

ولم يكـن السـيد الشريـف الـرضي أول من ذكر الأخشـبين، فقـد ذكر من قبـل مزاحم العقيلي، وهو شـاعر غـزلي بـدويّ (ت١٢٠هجرية):

خليـلي هـل لي مـن حيلـة تعلمانهـا	يقـرب مـن ليـلى إلينـا احتيالهـا
فـإنَّ بأعـلى الأخشـبين أراكـة	عدتنـي عنهـا الحـرب دان ظلالهـا
ممنعـة في بعـض أفنائهـا العـلا	يـروح إلينـا كلّ وقـت خيالهـا

إلّا أنَّ ياقـوت الحمـوي يـرى في هـذا الشـعر ما يـدل عـلى أنَّ الأخشـبين الواردين فيه

هما غير اللذين في مكة، وأنهما مكان واحد؛ لأنَّ الأراكة لا تكون في مكانين.[1]

وأيضاً تعالوا معنا نصغ إلى السيد الشريف الرضي وهو يذكر ظباء الحجاز وبعض بقاعه في أبيات يعدّونها من أجمل حجازياته، وهذه بعض أبياتها:

وظبية من ظباء الأنس عاطلة ... تستوقف العينُ بين الخمص والهضم
لوأنها بفناء البيت سانحةً ... كصدتها وابتدعتُ الصيد في الحرمِ
أحبّك ما أقام منى وجمعٌ ... وما أرسى بمكة أخشباها
لأنت النفس خالصة فإن لم ... تكونيها فأنت إذن مناها
نظرتك نظرة بالخيف كانت ... جلاء العين بل كانت قذاها
ولم يك غير موقفنا وطارت ... بكلّ قبيلة منا نواها ....

***

يا ظَبيَةَ البانِ تَرعى في خَمائِلِهِ ... لِيَهنَكِ اليَومَ أَنَّ القَلبَ مَرعاكِ
الماءُ عِندَكِ مَبذولٌ لِشارِبِهِ ... وَلَيسَ يُرويكِ إِلّا مَدمَعي الباكي
هَبَّت لَنا مِن رِياحِ الغَورِ رائِحَةٌ ... بَعدَ الرُقادِ عَرَفناها بِرَيّاكِ
عِندي رَسائِلُ شَوقٍ لَستُ أَذكُرُها ... لَولا الرَقيبُ لَقَد بَلَّغتُها فاكِ
سَقى مِنىً وَلَيالي الخَيفِ ما شَرِبَت ... مِنَ الغَمامِ وَحَيّاها وَحَيّاكِ
إِذ يَلتَقي كُلُّ ذي دَينٍ وَماطِلَهُ ... مِنّا وَيَجتَمِعُ المَشكوُّ وَالشاكي...

وكذا نراه يخاطب غزالاً، ويحمله أشواقه:

ألا يا غزالَ الرمل من بطنِ وجرةٍ ... أللواجِدِ الظمآنِ منك شروعُ
ألا هل إلى ظل الأثيل تَخَلُّص ... وهل لثنياتِ الغُوير طلوعُ

---

١. معجم البلدان، ياقوت الحموي١: ١٢٢؛ معالم مكة التأريخية والأثرية، عاتق بن غيث البلادي؛ ديوان الشريف الرضي؛ والشريف الرضي، حياته وشعره، نور الدين حسن جعفر: ١٧.

وهـل بليـت خيمٌ عـلى أيمـنِ الحِمى وزالـت لنـا بالأبَرقـين رُبـوع
ولم أنـسَ يـوم الجِـزعِ حُسـناً فَلَسـتُه بعينـي عـلى أنّ الزيـالَ سَريـعُ

ولا يكتفـي بذلـك، بـل راح وهو بعيـد عن تلك البقاع والآثار، يناشـد كلَّ مسـافر إلى تلـك الديـار الحبيبة على قلبـه، ويحملهم شـوقه وحنينه إليها:

أقـول لركـب رائحـين لعلّكـم تحلّـون مـن بعـدي العقيـقَ اليمانيـا
خـذوا نظـرةً منـي فلاقوا بهـا الحِمى ونجـداً وكثبـان اللـوى والمطاليـا
ومُـروا عـلى ابيـات حـيٍّ برامـةٍ فقولـوا لديـغ يبتغـي اليـوم راقيـا
عدمـتُ دوائـي بالعـراق فربـما وجدتـم بنجـدٍ لي طبيبـاً مُداويـا
وقولـوا لجـيرانٍ على الخيـف من منى اكـم مـن اسـتبدلتم بجواريـا

وقال أيضاً:

أَيُّهـا الرائِـحُ المُغِـذُّ تَحَمَّـل حاجَـةً لِلمُعَـذَّبِ المُشـتاقِ
أَقـرِ عَنّـي السَـلامَ أَهـلَ المُصَـلّى وَبَـلاغُ السَـلامِ بَعـدَ التَلاقـي
وَإِذا مـا مَـرَرتَ بِالخَيـفِ فَاشـهَد أَنَّ قَلبـي إِلَيـهِ بِالأَشـواقِ ....
ضـاعَ قَلبـي فَانشُـدهُ لي بَـينَ جَمـعٍ وَمِنـىً عِنـدَ بَعـضِ تِلـكَ الحِـداقِ
وَابـكِ عَنّـي فَطالَمـا كُنـتُ مِـن قَبـلِ أُعـيرُ الدُمـوعَ لِلعُشّـاقِ.[1]

ولأبي العلاء المعري أربعة أبيات يقول فيها:

سَـبّحِ وَصَـلِّ وَطُـف بِمَكَّـةَ زائِـراً سَـبعينَ لا سَـبعاً فَلَسـتَ بِناسِـكِ

١. حجازيـات الشريـف الـرضي، مصطفـى كامـل الشـيبي: ٢٥؛ كتاب الشريـف الرضي، دراسـات في ذكراه الألفية؛ شـعراؤنا القدامى، شراره عبداللطيف: الشريف الرضي، دراسـة ومختارات، الشـركة العالمية للكتـاب، ط١، ١٩٩٢م.

جَهِلَ الدِيانَةَ مَن إذا عَرَضَت لَهُ أَطماعُهُ لَم يُلفَ بِالمُتَماسِكِ.[1]

وهذا يحيى بن حبش... شهاب الدين السهروردي، الفيلسوف المقتول، والمولود عام (٥٤٩هـ) المختلف في سبب وكيفية قتله، ولم أجد فيما تيسّر لي تاريخ قتله. يكتب عشرة أبيات شعر حزينة، كما في الديوان المنسوب إليه، يذكر فيها شوقه ومتعته الروحية في البقاع المقدسة:

قف بنا يا سعدُ ننزل هاهنا فأثيلات النَّقا ميعادنا
وابتغِ لي عبرةً أبكي بها فدموعي نفذت بالمنحنى
هذه الخيف وهاتيك مِنى فترفَّق أيّها الحادي بنا
واحبس التدليج عنا ساعةً نندب الحيَّ ونبكي الوطنا
أهل مكّة هكذا مكّتكم كلّ من حجَّ إليها فُتنا
قتلت سُمركم سادتنا لستُ أعني بكم سُمرَ القَنا
كلُّ من آمل شيئاً ناله يوم عيدٍ في مُنى إلا أنا
قلتُ يا صيّاد قلبي حلّه حرم الصّيد على من في منى
قال من تعني وقد أبرز لي من خبا البُرقع وجهاً حسنا
قلتُ إياك فأوما خجلاً قال والصياد من قلت أنا

فيما جاء بعضها عن ابن رجب (ت٧٩٥هجرية)، في المجلس الثاني في ذكر الحجّ وفضله والحث عليه، دون أن يذكر اسم الشاعر، فيقول:

كان عمر بن عبد العزيز إذا رأى من يسافر إلى المدينة النبوية يقول له:

أقرىء [إقرأ] رسول الله ﷺ مني السلام.

وروي أنه كان يبرد عليه البريد من الشام:

١. ديوان أبي العلاء المعري.

هـذه الخيـف وهاتيـك منـى فترفـق أيهـا الحـادي بنـا
واحبـس الركـب علينـا سـاعةً ننـدب الربـع ونبكـي الدمنـا
فلـذا الموقـف أعددنـا البـكا ولـذا اليـوم الدمـوع تقتنـى
أتراكـم في النقـا والمنحنـا أهـل سـلع تذكرونـا ذكرنـا
انقطعنـا ووصلتـم فاعلمـوا واشـكروا المنعـم يـا أهـل منـى
قـد خسرنـا وربحتـم فصلـوا بفضـول الربـح مـن قـد غبنـا
سـار قلبـي خلـف أحمالكـم غـير أن العـذر عـاق البدنـا
مـا قطعتـم وادياً إلا وقـد جئتـه أسـعى بأقـدام المنـى
آه وأشـواقي إلى ذاك الحمـى شـوق محـروم وقـد ذاق العنـا
سـلموا عنـي عـلى أربابـه أخبروهـم أننـي خلـف الضنـا
أنـا مـذ غبتـم عـلى تذكاركـم أتـرى عندكـم مـا عندنـا
بيننـا يـوم أثيـلات النقـا كان عـن غـير تـراض بيننـا
زمنـا كان وكنـا جـيرة فأعـاد الله ذاك الزمنـا

مـن شـاهد تلـك الديـار وعايـن تلـك الآثـار، ثـم انقطـع عنها لم يمـت إلّا بالأسـف عليهـا والحنـين إليها:

مـا أذكـر عيشـنا الـذي قـد سـلفا إلّا وجـف القلـب وكـم قـد وجفـا
واهـاً لزماننـا الـذي كان صفـا وا أسـفا وهـل يـرد فائتـاً وا أسـفا.[1]

ولا بـدّ مـن الإشـارة أنَّ بعـض الشـعراء - كـما يبـدو لي - راح يذكر هذيـن البيتين أو الثلاثـة مطلعـاً لقصيدته كـما في البدايـة والنهاية لابـن كثير (ت٧٧٤هجريـة)، ١٦: ٣٢٥

١. انظر في هذا ديوان السهروردي المقتول؛ لطائف المعارف، لابن رجب: ٢٤١ .

والهامش ذكر خمسة أبيات عن المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، لأبي الفرج ابن الجوزي المتوفي (٥٩٧هجرية) ١٧: ٣٤٠.

في ترجمة علي بن أفلح... وقد أورد ابن الجوزي أشياء حسنة من نظمه ونثره،... ومن ذلك قوله:

هذه الخَيف وهاتيك منى ... فترفّق أيها الحادي بنا
واحبس الركب علينا ساعةً ... نندب الربع ونبكي الدِّمنا
فلذا الموقف أعددنا البُكا ... ولذا الدِّمن دموعي تُقتنى...

ولعبد الرحيم بن أحمد بن علي البرعي اليماني (ت٨٠٣هجرية)، وهو شاعر، متصوف، قصيدة في ديوانه من تسعة عشر بيتاً راح يصف فيها ما يعانيه من وَلهٍ وشوق لمكة وما حولها من البقاع، يُقال إنَّه أنشدها، وكان على مقربة من المدينة المنورة، وما أن أتمَّ بيتها الأخير حتى توفي؛ لتفاقم مرضه عليه، وهذه قصيدته من ديوانه:

يا راحلينَ إلى منىً بقيادي ... هيجتُموا يومَ الرحيل فؤادي
سرتم وسار دليكم يا وحشتي ... والعيس أطربني وصوت الحادي
وحرمتموا جفني المنام لبعدكم ... يا ساكنين المنحنى والوادي
فإذا وصلتُم سالمينَ فبلّغوا ... منّي السلام أهيلَ ذاك الوادي
وتذكّروا عند الطواف متيماً ... صبّاً فني بالشوق والإبعادِ
لي من ربا أطلال مكّة مرغبٌ ... فعسى الإلهُ يجودُ لي بمرادي
ويلوحُ لي ما بين زمزم والصفا ... عند المقام سمعت صوت منادي
ويقول لي يا نائماً جدَّ السُرى ... عرفاتُ تجلو كلّ قلبٍ صادي
تاللهَ ما أحلى المبيت على منى ... في يوم عيد أشرفِ الأعيادِ
الناسُ قد حجّوا وقد بلغوا المنى ... وأنا حججتُ فما بلغتُ مرادي

حجّـوا وقـد غفـر الإلـهُ ذنوبَهُـم ... باتـوا بِمُزدَلَفَـه بغـيرِ تمـادِ
ذبحـوا ضحاياهُـم وسـال دماؤُهـا ... وأنـا المتَيَّـمُ قـد نحـرتُ فـؤادي
حلقـوا رؤوسَـهمو وقصّـوا ظُفرَهُم ... قَبِـلَ المُهَيمـنُ توبـةَ الأسـيادِ
لبسـوا ثيـاب البيـض منشـور الرّضا ... وأنـا المتيـم قـد لبسـت سـوادي
يـا ربِّ أنـت وصلتَهُـم وقطَعتنـي ... فبحقِّهِـم يـا ربّ حـلّ قيـادي
بـاللهَ يـا زوّارَ قـبرِ محمّـدٍ ... مـن كان منكُـم رائـحٌ أو غـادِ
لِتُبلغـوا المُختـارَ ألـفَ تحيّـةٍ ... مـن عاشـقٍ متقطِّـع الأكبـادِ
قولـوا لـه عبـدُ الرحيـم متيِّـمٌ ... ومفـارقُ الأحبـابِ والأولادِ
صـلّى عليـكَ اللهُ يـا علـمَ الهـدى ... مـا سـارَ ركـبٌ أو ترنَّـمَ حـادِ

أبو القاسـم محمـود بـن عمر الخوارزمي الزمخشـري، لقـب بجـار الله لمجاورته بمكة زمنـاً، ولمـا كان في طريقه إليهـا نظّم قصيدتـه الرائيّة:

سـيري تمـاضر حيث شـئت وحدّثي ... إني إلى بطحـاء مكـة سـائر
حتـى أنيـخ وبـين أطـماري فتـىً ... للكعبـة البيـت الحـرام مجـاور
والله أكـبر رحمـةٍ، والله أك ... ثـر نعمـةٍ، وهـو الكريـم القـادر
يـا مـن يسـافر في البـلاد منقبـاً ... إني إلى البلـد الحـرام مسـافر
إن هاجـر الإنسـان عـن أوطانـه ... فـالله أولى مـن إليـه يهاجـر
سـأروح بـين وفـود مكّـة وافـداً ... حتـى إذا صـدروا فـما أنـا صـادر
حسـبي جـوار الله حسـبي وحـده ... عـن كلّ مفخـرةٍ يعـدّ الفاخـر

ولما عاد منها إلى بلده اشتدَّ شوقه وحنينه إليها فأنشدَّ:

بـكاءٌ علـى أيـامِ مكـةَ إنَّ بي ... إليهـا حنينٌ الـنِّيبِ فاقـدةُ البكـرِ

تذكَّرتُ أيـامًا بـهـا فكـأنَّني ... قـد اختلفت زرقُ الأسـنَّةِ في صدري
أبِيتُ عـلى الصخـر المبـارك باكيـاً ... كما أنَّـتِ الخنسـاءُ تبكـي على صخر
و حـينَ تخطينـا المناقـبَ وارتمـتْ ... بنـا العيسُ تهـوي في مسـالكها القفرِ
و قلـتُ ألا أيـنَ الحطيـمُ وزمـزمٌ ... و مـاليَ محجـوزًا عن الركـنِ والحجرِ
صفـرتُ وراءَ الغـورِ صفـرةَ مفلسٍ ... رأي يـدَهُ صفـرًا من البيـضِ والصفرِ
و قلـتُ لقلبـي قـدْ ملكتـكَ مـرَّةً ... فـما أنـتَ إلاَّ طائـرُ طـارَ في وكـرِ

وتوفي ليلة عرفة سنة (٥٣٨ هجرية).

أبـو اليمـن ابن عسـاكر الدمشـقي، جـاور بمكة نحـو أربعين سـنة. وتـوفي في جمادى الأولى سـنة سـت وثمانـين وسـتمائة بالمدينـة النبويـة، لـه قصيـدة فيهـا شـكوى وموعظـة ونصيحـة...، عنوانهـا هـو بيتها الأول نفسـه:

يـا مـن تبـوأ مـن مشـاعر مكـة ... متبـوأ بـين الصفـا والمـروة
وأبسـط لـه كـفّ السـؤال فإنـه ... جـمّ النـوال ببسـط ظـلّ النعمـة
واخضـع لـه واضرع إليـه ونـاده ... متنصـلاً ممـا جنيـت بذلـة
وارفـع إلى مـولاك شـكواك التـي ... طالـت بهـا نجـواك أبعـد شـقة
وانظـر لأمـرك حيـث أمـرك منظـر ... لابـدّ مـن بعـد الكـرى مـن يقظـة

إلى أن يقول:

فـأوى إلى حـرم ولاذ بمأمـن ... مسـتوثقاً منهـا بأوثـق عـروة
ألقـى العصـا فيهـا وأوضـع كـي بها ... تضـع الخطـا والحـوب عنـه بتوبـة
واغسـل ذنوبـك بالدمـوع لعلّـه ... أن يجتبيـك مـن لدنـه برحمـة...

الشـاعر أحمـد شـوقي (ت ١٩٣٢ م) في رائعتـه، التـي يبدأهـا بجبل عرفـات.. ويُعدُّ الوقـوف عنده أهم مناسـك الحـجّ؛ (الحـجّ عرفة):

إلى عرفات الله يا خير زائر ... عَلَيكَ سَلامُ اللهِ في عَرَفاتِ
ويوم تولى وجهة البيت ناضراً ... وسيم مجالي البشر والقسمات
وَفي الكَعبَةِ الغَرّاءِ رُكنٌ مُرَحِّبٌ ... بِكَعبَة قُصّادٍ وَرُكنِ عُفاةِ
وَما سَكَبَ الميزابُ ماءً وَإِنَّما ... أَفاضَ عَلَيكَ الأَجرَ وَالرَحَماتِ
وَزَمزَمُ تَجري بَينَ عَينَيكَ أَعيُنًا ... مِنَ الكَوثَرِ المَعسولِ مُنفَجِراتِ
وَيَرمونَ إِبليسَ الرَجيمَ فَيَصطَلي ... وَشانيكَ نيرانًا مِنَ الجَمَراتِ
لَكَ الدينُ يا رَبَّ الحَجيجِ جَمَعتَهُم ... لِبَيتٍ طَهورِ الساحِ وَالعَرَصاتِ
أَرى الناسَ أَصنافًا وَمِن كُلِّ بُقعَةٍ ... إِلَيكَ اِنتَهَوا مِن غُربَةٍ وَشَتاتِ
تَساوَوا فَلا الأَنسابُ فيها تَفاوُتٌ ... لَدَيكَ وَلا الأَقدارُ مُختَلِفاتِ
عنت لك في الترب المقدس جبهة ... يدين لها العاتي من الجبهات
منورة كالبدر شماء كالسها ... وتخفض في حقّ وعند صلاة
ويا رب هل تغني عن العبد حجّة ... وفي العمر ما فيه من الهفوات
وأنت ولي العفو فامح بناصع ... من الصفح ما سودت من صفحاتي...

وله أيضاً:

يا كعبة العلم في الإسلام من قدم ... لا يزعجنّك إعصار الأباطيل
إن كان قومك قد جاروا عليك وقد ... جاءوا لهدمك في جيش الزغاليل...
الله أرسل طيراً بين أرجلها ... قنابل الصخر ترمى صاحب الفيل
للدّين والبيت ربٌّ لا يقاومه ... حمر الثياب ولا سود الأساطيل

الشاعر محمد إقبال (ت ١٩٣٨ م) وبعض شواهده الشعرية:

يقول الدكتور فهمي النجار:.. يرتبط إقبال بالعالم العربي المسلم برباط العقيدة

التـي هـي العـروة الوثقـى، ويعـبر عـن هـذه الصلـة المتينـة في صـورة جميلـة، فيقـول في قصيدتـه «شـكوى»:

أنـا أعجمـيٌّ الـدنِّ لكـن خمـرتي صنـع الحجـاز وكرمهـا الفينـان

إن كان لي نغـم الهنـود ولحنهـم لكـنَّ هـذا الصـوت مـن عدنـان...

وله:

صـوت قيثـارتي التـي سـمعوها أعجمـيٌّ لكـنَّ لحنـي حجـازي...

ويتغنّـى إقبـال بـأرض الحجـاز، منبـت الوحـي، وأرض البطـولات، فيقـول في قصيـدة «شـكوى» مبينـاً أنها وطن كلّ مسـلم عـلى أرض المعمـورة، وإليهـا يحنُّ قلب كلّ مؤمـن:

أشـواقنا نحـو الحجـاز تطلّعـت كحنـين مغـترب إلى الأوطـان

إنَّ الطيـور وإن قصصـت جناحيهـا تسـمو بفطرتهـا إلى الطـيران...

وله أيضاً:

أنـا أعجمـي الحـبّ إلّا أننـي أطلقـتُ في الحـرم الشريـف لسـاني

داري وقبلتـي وفخـاري

لقـد عاش محمد إقبال شـاعر الإسـلام – مدة حياتـه – في حبّ النبيّ ﷺ والشـوق إلى مدينتـه، وتغنّى بها شـعره الخالد...

ويقـول عنـه أيضاً: ويبقـى محمد إقبال يشـتاق إلى أرض الحجاز حتـى الدقائق الأخيرة من حياته، فينشـد:

نغـمات مضـين لي هـل تعـود ونسـيم مـن الحجـاز سـعيد

أذنـت عيشـتي بوشـك رحيـلٍ هـل لعلـم الأسرار قلـب جديـد...

نظـم شـعر إقبـال بالعربية كلّ مـن د. عبد الوهاب عـزام، وكذا الصاوي الشـعلان...

أما أبو الحسن ندوي فقد ترجمه نثراً...[1]

نكتفي بهذه الشواهد الشعرية من بعضهم، وإلّا هناك الكثيرون من الشعراء تجلّت قرائحهم؛ لتحكي وجدانياتهم في لوحات شعرية فنيّة مؤثرة شوقاً إلى مكة المكرمة وما فيها، وحنيناً ومدحاً وثناءً ووصفاً لها... وإذا ما تتبعها القارئ يجد وكأنَّهم يتنافسون في قصائدهم عنها، وفي حنينهم وشوقهم ووصفهم لها!

***

١. من كتاب الشاعر والمفكّر الإسلامي محمد إقبال، د. فهمي النجار: ١٤٤ وهامشها، بتصرف.